

الإسلام عز العروبة

الأستاذ درويش العلواني

وزير الدولة والأوقاف سابقاً
(دمشق)

ففي أواخر القرن السادس للميلاد كانت القوتان المتقابلتان المسيحية والمجوسية تحيطان بشبه جزيرة العرب وظلت أرض العرب واحة حصينة آمنة من الغزو إلى حد ما إلا من بعض أطرافها ، وكان لموقعها وطبيعتها الجغرافية أثر في حماية أهلها وفي تكوين طباعهم ومزايهم ، فقد حصنتهم البحار المحيطة من ثلاث جهات والصحراء من الجهة الرابعة من تغفل الأماجم ونفوذ الدولتين الكبيرتين إذ ذلك : دولة الفرس ودولة الروم وجملتهن يمتزجون بالحرية ويفخرون بالأباء والشجعان ويباهون بالحمة والنجدة والكرم والوفاء مما طبع العربي على خصائص وميزات ظلت ترافقه زمناً طويلاً .. وكانت سبباً في إثارة الفيرة والحقد لدى العناصر الأعجمية التي ابت أن تقر لهم بميزة أو فضل ولو ظهر الإسلام في بلادهم وكان القرءان عربياً وصاحب الرسالة من أشرف بطن في العرب ومن خير ولد آدم وكان خياراً من خيار .

لم تكن هناك مناطق زراعية إلا في اليمن وبعض الواحات التي تصل إليها الأودية حاملة بعض الماء عقب الأمطار العارضة والنادرة والمفاجئة أو بعض العيون والينابيع القليلة في أكناف الجبال العالية أو القريبة من البحر . كما لم تكن هناك صناعة تذكر إلا

بطن بعض ذوي التفكير السطحي أن القومية لا تكمل إلا إذا ابتعدت عن الدين وكأنها شيء فوق الأديان أو لا صلة لها بها ، وما عرفوا أن القومية العربية بصورة خاصة لا تستطيع الاعتماد على الإسلام ولا عما جاء به كما لا تستطيع اللغة العربية أن تكون ذات شأن بعيدة عن القرءان الكريم . وإنما لا نستطيع أن ندرس التاريخ العربي بعيداً عن الواقع الإسلامي والحضارة الإسلامية .

ويظن آخرون أن الإسلام كائن مستقل عن العرب والعروبة وأنه دين فقط كغيره من الأديان السماوية لا علاقة له بمشئته ولا بالأمة التي خرج منها صاحب رسالته ولذا يرون أن القومية العربية ضد الإسلام وأنه بالتالي يجب أن يحاربوا هذه الفكرة الدخيلة .

كلا الطرفين مغال في نظريته بعيد عن الصواب لأن العرب المسلمين لا يقولون العصبية العنصرية تمشياً مع هدي رسول الله الذي يقول : « ليست العربية لأحدكم من أب ولا من أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي » .. وكان يقول : « سلمان من آل البيت » .. رغم أنه فارسي . كما دعا المسلمين إلى حب العرب إذ قال : « أحبوا العرب لثلاث : لأنني عربي والقرءان عربي ولسان أهل الجنة في الجنة عربي » .

للمؤمنين وحدهم أو العرب وحدهم بل كانت دعوته إنسانية إلا إذا حدث عدوان على حدود الله أو عباده. أمرهم بإقامة العدل ولو كان على أنفسهم ومنهم من يظلموا بسبب شتان بينهم وبين غيرهم وقال لهم : « ولا يجرمنكم شتان قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى » . حفظهم على طلب السلم لمعرفة إلاء الله وإياته وللإستفادة مما خلق لهم وحشهم على السعي لطلب الرزق وجعل الاجر على قدر الشقة وقال لهم : « وان لبس للأنسان إلا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الاولى » .

وقد منح الله العرب شرفا ان النبي الكريم منهم والقردان العظيم جاء بلغتهم وانه ذكرهم فيه كثيرا لعظمهم يعقلون قيمة هذا الشرف « انا انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم » . وفي هذا تخليد لامة العرب بأن حفظ لها لغتها بحفظ القردان : « انا نحن نزلنا الذكر ، وانا له لحافظون » . وحفظ لها تاريخها ومجدها ان كان بناء الاسلام الاولون من العرب ومن صحابة وعشيرة رسول الله عليه الصلاة والسلام لا لانهم كذلك بل لانهم شعروا بالمسؤولية اكثر من غيرهم وتحملوها كاملة حتى ان ابا بكر حارب المرتدين لامتناعهم عن دفع الزكاة ولم يرض ان يستأهل في منع عناق كانوا يؤدونه الى رسول الله ولو نطقوا بالشهادتين وسير جيش اسامة لحرب الروم ولم يتردد في ارساله رغم حرج الموقف وصعوبة الظروف . وكانت الفتوح وكانت الانتصارات وهلت راية الاسلام برفعها ابناؤه البهليل من العرب الاولين لرفع الله شأنهم وأهل منزلتهم وصار التقرب الى حكامهم قريبا من الله لانهم حملة رسالته وحماة دينه وكانوا سببا في ان يدخل الناس في دين الله افواجا وهذه حقيقة تاريخية لا تعصب منصري او حجة لاقرار نظرية مرقية لم يدع اليها الاسلام أبدا .

حفظ الله اللغة العربية بالقرآن الكريم :

قرر اكثر علماء الاجتماع وكبار المفكرين في القضايا التاريخية والسياسية ان اللغة اهم عنصر من عناصر تكوين الامة فهي التي تنقل الأفكار بأيسر وسيلة الى ابنائها وهي التي تخط طريقة التفكير وتساعد على توحيد الآراء وتجانس الانطباعات وهي التي تعبر عن روح الأفراد والجماعات .

ما كان من صنع ادوات الترحل والسفر وادوات الحرب والقتال وحتى هذه كانوا يستوردونها من البلاد المجاورة اذ كانوا يشاركون في رحلة الشتاء والصيف الى اليمن والشام ويقيمون الاسواق للمبادلة والتجارة في مكة وما حولها والمدينة وما جاورها وكان البيت العتيق الذي جعله الله للعرب مثابة وامنا فاطمهم من جوع وآمنهم من خوف اثر في تنظيم مكانة ام القرى . هذا المركز التجاري الهام لمكة المكرمة جعل من فيها من العرب من قريش واحلافها سادة الجزيرة وامراء الجيوش في الحروب واصحاب الحل والربط بين القبائل الاخرى واهل الفصاحة والبيان فكثرت فيهم الخطباء والشعراء وازدانت اسواقهم بالمناظرات والندوات الادبية الى جانب البحث في الشؤون الاجتماعية والسياسية التي تنظم حياتهم القبلية على نطاق محدود .

لم يند من بلاد العرب من جهالة المدينة المعاصرة لهم الا بعض اطراف الجزيرة في اليمن وما جاورها وبلاد الشام وارض الحيرة مما جعل هذه المناطق طعمة للفازين بسبب ازدهار الحياة فيها ولطافة الطبيعة نسبيا ووفرة الانهار والامطار فاقاموا السدود وبنوا المدن والحصون وزرعوا الارض وصنعوا ما هم بحاجة الى صنعه والى بيعه في بعض الاحيان الى البلاد الاخرى . وكانت هذه المناطق

العامرة الخصبة مادة جذب للديانات الاخرى من وثنية معقدة كالمجوسية في شرق العراق واليهودية في اليمن والنصرانية في نجران وبلاد الشام وبعض انحاء العراق الشمالية فلما جاء الاسلام وجد العرب فيه ضالتهم والفوه منسجما مع بعض طبائعهم اذ دعاهم الى حرية الفرد من تسلط الكبراء وحرية الكبراء وحرية الفكر من تفاهة الوثنية وتعميدات الشرك والى كرامة الانسان باتصاله مباشرة بالواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد . علمهم الايات والشمم وامرهم ببرد العدوان على من اعتدى عليهم والاستعداد لارهاب عدو الله وعدوهم . ومنهم من العدوان لان الله لا

يحب المعتدين ، وازال العصبية الجاهلية العمياء وجعل اكرمهم عند الله اتقاهم وساوى بين الناس من كل جنس وامرهم بالتعارف والتعايش السلمي وقال لهم : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . وكان خطابه للناس كافة وليس

وان حركات التحرير من السيطرة الاجنبية
تبيديء باحياء اللغة والتفسي بأجمل ما أنتجه
شعراؤها وخطباؤها في قصائد وخطب ثم السير
على نهجهم وتقليدهم في الاسلوب والموضوع :

ما ارانا نقول الا مصاروا

او معادا من قولنا مكرورا

وعندما تقوى الامة وتنتصر تنتشر لغتها لا
بالقوة بل بطبيعة ما تستوجه السلطة من وجود رجال
يحكمون ومشرعين يشرعون وقضاة يقيمون العدل
وتجار يتقربون من الحكام لرواج تجارتهم ورجال
صناعة ولداة يحتاجون لحماية السلطة الحاكمة
لازدهار اعمالهم ، كل هذا يستوجب انتشار لغة
الحكام الجدد ناهيك من التسابق الى الدخول في
الدين الجديد رغبة في الخير او رغبة من الله وما
يتوجب على بقائهم في الشرك والكفر من عقابهم في
الدنيا والاخرة او على الاقل تقربا من الحكام
ومشاركة في السلطة على اختلاف وجوهها .

بدهي ، كل هذا حدث للغة العربية عندما نقلها
الاسلام الى ارجاء الدنيا مع الفاتحين والى افكار
المفكرين لكثير من اهل الارض ولو بقوا على دين
ابائهم واجدادهم فاصبحت واسطة التفاهم بين
العديد من العلماء والفلاسفة كما هو الحال بالنسبة
للغات الحية الحديثة في العالم المعاصر . ومن اجل
فهم القردان الكريم وضع ابو الاسود الدولي في عهد
الامام على قواعد النحو وذلك عندما كثر اللحن في
الكلام وتداخلت اللغات الاعجمية من فارسية ورومية
في اللغة العربية بسبب الاختلاط بعد انتشار
الاسلام ، ومن اجل القردان الكريم وضمت علوم اللغة
من بلاغة وبيان وبديع وجمعت اوزان الشعر في
المروض وتقرب المختصون في تفسير القردان وجمع
الحديث الى الله بالتمق في فهم اللغة العربية
واسرارها وبيان اعجاز القردان وفصاحته ولولا
ذلك لتغيرت اللغة العربية وانقسمت الى لهجات
 واصبحت لغات شتى كما حدث للغة اللاتينية التي
نشأت منها الفرنسية والاطالية والاسبانية
والبرتغالية والرومانية وغيرها . فالاسلام الذي
اوجب الصلاة والدعاء والاذان باللغة العربية واوجب
تلاوة القردان وفهمه ، حفى المسلمين ان يسارموا
الى فهم اللغة العربية ولو كان المسلم من غير
العرب .

اما العرب انفسهم الذين انتقلوا مع الدين
الجديد الى انحاء بعيدة في اسية والبريقية واوربة
لقد نشروا لغتهم وكتبوا بها ووصفوا اسس حضارة
اسلامية عريقة واحتراما لدينهم لم يتهاونوا في لغتهم
ولم يفسدوها بالتحريف والوطانة بل بقوا محافظين
عليها متمسكين بها رغم المحن التي اصابتهم على مر
العصور ورغم تسلط الاعاجم من مسلمين وغيرهم
على بلادهم واكبر مثال على ذلك في التاريخ المعاصر
الثورة الجزائرية عام 1954 م التي انتهت الى النصر
المبين فقد كانت المعارك الحربية تسير فيها جنبا الى
جنب مع معركة احياء اللغة العربية والتعريب
ولولا الاسلام لكانت اللغة العربية قد زالت بظفان
الفرنسية وجدير بالذكر فضل رجال الدين المخلصين
في بلاد المغرب العربي الذين تحصنوا بالمساجد
وعلموا القردان الكريم ونشروا اللغة العربية وفضل
جامعة القرويين في «فاس» وجامع الزيتونة في
«تونس» ومساجد الجزائر وجهار جمعية العلماء
فيها . وفي المشرق العربي كان حكم الماليك
والعثمانيين الطويل كفيلا باندثار اللغة العربية لولا
الاسلام والقردان ولولا النور الذي كان يشع من
المساجد والمآذن ويدعو الى الله باللغة العربية .

خلدت الحضارة الاسلامية اللغة العربية وجعلت
العروبة والاسلام صنوان تسمى بهاء واحد وقد كانت
العربية قبل الاسلام لغة الحضارة البدائية بسيطة
سهلة تتناول مستلزمات الحياة البدوية في البادية
من تنقل وتوكل ورمي للابل والغنم وركوب الخيل
وغزوات وحروب وفروسية وحض على القتال والثار
وتفاخر بالمصيبة وتكاثر بالاموال والاولاد ومباهاة
بالكرم والمروءة والنجدة ومعرفة بالانساب واقتفاء
الاثر وتطلع الى الانواء الجوية وتوقع لتقلباتها من
رياح ومطروح وثر واحاديث تروى في الليالي الطويلة في
الشتاء والليالي المظلمة في بقية الفصول ، فلكل هذه
الدنيا البدوية لغة تعبر عنها وكان من ذلك ان كثرت
الترادفات لكثرة القبائل وتنوعت اللهجات بسبب
بعد المسافات والحياة المغلقة التي تعيشها كل
عشيرة على شكل وحدة متقلة .

اما في الحواضر والمدن فكانت اللغة ارقى بسبب
تعدد الحياة بعض الشيء وما تستلزمه ظروف
الاستقرار من عمران وتنظيم للحياة الاقتصادية
والعلاقات الاجتماعية اذ كانت ادارة القبائل فيها
منظمة بعض الشيء فكانت الاحلاف وحقوق الجوار
وتنظيم مواسم الاسواق للتبادل التجاري والندوات

للمدارسة في الشؤون العامة ومطابقة الشعر والقاه الخطب وتقدير الرجال وتكريم الشعراء وتسليم الرئاسات وما الى ذلك مما جعل اللغة العربية تتقارب لهجاتها وتتوحد مفرداتها لتكون كلنسات مشتركة للحياة المشتركة وكانت لهجة قريش افسح اللهجات ولما جاء الاسلام جعلها اللغة الرسمية وصارت لغة المسلمين في انحاء الجزيرة وتلاشت تدريجيا اللهجات العربية الاخرى .

وهكذا وحد الاسلام وسيلة التفكير وتقارب المفاهيم واساليب البحث والنقاش بل وظهرت كلمات جديدة كالصلاة والوضوء والزكاة او صار للكلمات القديمة مدلولات جديدة . ولما فرغ المسلمون من الفتح بعد العهد الاموي واتسع لهم الرزق واستقرت بهم الاحوال وانتظمت الدولة الاسلامية وصار لها دواوين وادارات وجيوش جرارة وقيادات وما يتبع ذلك من اعداد وتسليح وتموين وتدريب وانضباط وتوجيه كما اصبحت للحياة الاقتصادية قيمتها الجديدة بعد اتساع نطاق الزراعة والصناعة والتجارة وتفرع طرق المواصلات وزيادة وسائل النقل وبعد ان اصبحت البريد دوره في تنظيم المخابرات وتنفيذ الاوامر ومراقبة الحكام والموظفين كل هذا استوجب ان تتوسع اللغة العربية لتستوعب متطلبات هذه الحياة الجديدة ورغم انها استعانت باللغات الاخرى لدى المسلمين الجدد من الاماجم الا انها نظرا لمرونتها وسهولة الاشتقاق فيها تطورت وظهرت فيها كلمات ومصطلحات جديدة اما مصرية او موضوعة مما اغناها ووسع افق التعبير بها .

وفي نفس الوقت اخذ عقل المسلمين يتفلسف في الدين فيثير خلافات دينية ويجهتد في كبتها والتوليف بين مظاهرها بعد ان كانت عقيدة المسلمين في اول امرها بسيطة ساذجة لا تلبه لخلاف ولا تلتفت الى بحث وفلسفة وكاد ينقضي العصر الاول في ايمان لا جدل فيه ولما هذا الناس اخذوا ينظرون ويبحثون ويجمعون بين الاشياء ويقارنون بين المتناقضات وبخاصة لما كثرت الترجمة ودخلت الفلسفة اليونانية وعرفت المذاهب المختلفة في الديانات الاخرى من يهودية ومسيحية وزرادشتية ومناوية وصائية ودهرية عند ذلك اخذ العلماء المسلمون يتسلحون بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة ليدافعوا عن دينهم امام اصحاب العقائد الاخرى او امام المتشككين من الدين لم يدخل الايمان في قلوبهم او من المنافيين الذين تظاهروا بالاسلام

ليكيدوا له . في هذه الفترات التي انطوى فيها عقل المسلمين في مختلف مجالات العلوم والآداب والمعرفة ازدهرت اللغة العربية ايما ازدهار واصبحت لغة الحضارة الاسلامية وصارت لغة العلم والفلسفة والادارة والاقتصاد وانتقلت مع المسلمين الى انحاء بعيدة في الصين واندونيسيا وجزر « الواق واق » في المحيط الهادي - ويك - حاليا ، وباحتكاك المسلمين مع غيرهم بواسطة التجارة والقوافل انتشر الاسلام من غير حرب ولا فتوح كما في ماليزيا والفلبين واندونيسيا وغيرها وانتقلت اللغة العربية مع القرآن الكريم الى كل هذه الاصقاع وهي وان لم تصبح لغة الشعوب المسلمة صارت معروفة لديهم مقدسة عندهم ودخلت كثير من كلماتها في لغاتهم وصارت المصطلحات الدينية سائدة بينهم من سلام وتحية وحمد لله وشكركم ودعاء وتوسل واستغفار وصار التقى الصالح المقرب الى الله هو الذي يتكلم اللغة العربية ليفهم معاني القرآن وينشر تعاليمه بين مواطنيه واصبحت الحروف العربية حروف اللغات المحلية كالفارسية والاردية مما جعل القرابة اقوى بين هذه اللغات واللغة العربية . وهكذا حفلت مكتبات البلاد الاسلامية بالكتب العربية المخطوطة او المنسوخة في بخارى وسمرقند ولاهور وشيراز ونيسابور ودلهي وعليكرة رغم ان شعوب هذه البلاد غير عربية ولكن الاسلام وحضارته التي شارك فيها المسلمون كان سببا في جعل اللغة العربية لغة الحضارة في القرون الذهبية ومهدد الازدهار . حتى ان الافلاطونية والافلاطونية الحديثة والفلسفة الاغريقية بصورة عامة لم تصل مشروحة الى الغرب الا بواسطة العلماء العرب كابن رشد في المغرب والاندلس وابن سينا والفارابي في المشرق وابن الطيلى وابن خلدون وغيرهم .

ليس هذا دليلا على ان الاسلام رفع شان العربية والعرب في الحضارة العالمية لفترة طويلة من الزمن ؟ الا تدلنا آثار العرب في فرنسا واسبانيا وايطاليا وجزر البحر الابيض المتوسط على مدى ما وصل اليه العرب من هرة وفخار بفضل الاسلام ؟

حق الاسلام على كل عربي ان يفخر به :

وبعد ان المعنا في هذا الاستعراض الموجز الى ما كسبته اللغة العربية من القرآن الكريم والاسلام الحنيف ومن المسلمين الفطاحل من مفسرين

وبعد ان انتشر علماء المسلمين من عرب
وغيرهم فى بلاد الاسلام يعلمون الناس القراءان
ويفسرونه وينشرون تعاليمه .. صار ضروريا
على كل مسلم وحتميا ان يتعلم مبادئ اللغة العربية
ليزداد ايمانا وقربى الى الله .

بعد هذا كله الا يحق لكل عربي ان يفاخر
بالاسلام الذى نصر العربية وجعلها لغة الحضارة
والخلود ومكن العربي ان يتصل بكل مسلم فى انحاء
الارض بمجرد القاء تحية الاسلام واقراء السلام
وهل اكون مبالغا فى النهاية اذا قلت : ان المسلم
لا يحسن اسلامه اذا لم يحب العربية .. والعرب وان
العربي لا تصح مرويته اذا لم يفخر بالاسلام ولو كان
على غير هذا الدين .

ومحدثين ولغويين وعلماء كلام وفلاسفة عظام وعلماء
فى مختلف العلوم الكونية من طب وطبيعة وكيمياء
ورياضيات وفلك وجغرافية وتاريخ وعلم اجتماع .
وبعد ان اصبحت الحضارة الاسلامية عربية الشكل
والقالب حتى لم يعد المحقق يفرق بين التسمية هل هي
اسلامية صرف ام عربية صرف ... فهي كلتاها
مما واصبحت امهات المؤلفات والكتب العلمية
والفلسفية والدينية لا تكتب الا بالعربية وما تزال
الى يومنا هذا شاهد عيان على ذلك فى معظم انحاء
العالم الاسلامي وفى كبريات المكتبات العالمية فى
الاسكوريال فى اسبانيا وفى باريس ولندن وبرلين
وموسكو واسطنبول مخطوطات ومجلدات لكتب
عربية اصيلة بعضها لم يشهد النور او لم تصل اليه
اممال المحققين والدارسين وذلك هذا ما فى المكتبات
الخاصة من ذخائر وكنوز .

